الإنسان والتربية من وجهة نظر ابن القيم

(تطبيقات تربوية)

إعداد

الدكتورة إيمان مُحَمَّد مبروك قطب

الأستاذ المساعد بقسم المناهج وطرق التدريس

جامعة المدينة العالمية

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى التعرف على مفهوم التربية عند ابن القيم، كما يهدف البحث الربط المتكامل بين الإنسان والتربية وعدم الفصل بينهما، وكذلك الإسهام فى تأصيل التربية عن طريق الوقوف على التراث التربوي، والرغبة فى إبراز الفكر التربوى عند ابن القيم. وتتحدد منهجية هذا البحث فى اقتصاره على المنهج الوصفى الذى يصف آراء ابن القيم فى شخصية الإنسان باعتباره محور العملية التربوية، وأسفرت نتائج البحث عن تحديد الفكر التربوى الأصيل عند ابن القيم بنظرته إلى الإنسان بأنه محور العملية التربوية، تحرص التربية عند ابن القيم على إيجاد نموذج خاص من الإنسان الصالح الحريص على العلم النافع.

Abstract

This research aims to identify the concept of education in Ibn El Qaym view, integrates the links between human and education and contributes to the rooting of education process by standing on the traditional education by focusing on considerations of Ibn El Qaym thought. The methodology of this research is confined in a descriptive approach which describes the views of Ibn El Qaym thought in human personality as a core of the educational process, as well as his opinions on educational stages.

The research found the following results:

Determination of authentic education in Ibn El Qaym thought view where he saw to the human as the core of educational process. Educational process in Ibn El Qaym though keen to find a special form of a valid human who acquire useful knowledge.

المقدمة:

إن التصور الذي يحمله الإنسان، ونظام القيم الذي يرتبط به، يترك أثره في سلوكه سلبًا أو إيجابًا، وينعكس ذلك الأثر –بطبيعة الحال– على سير المجتمع وبناء الحضارة برمته.

وإن ما تثمره القيم التربوية الإسلامية في البناء الشخصي للإنسان المسلم هو تقوية صلته بالله عز وجل، إلى الدرجة التي تجعله يراقبه في السر والعلن، و في كل حركاته وسكناته، فهو لا يقدم على شيء إلا وهو يراعي حرمة الله ويرجو له وقارًا.. ومعنى ذلك أن المسلم في علاقته بربه، يستشعر الخشية والخوف منه، في نفس الوقت الذي يتوجه إليه بالرجاء.. وذلك الخوف وهذا الرجاء يملآن قلبه بشعور عارم من التحرر من جميع المخاوف؛ لأنه يشعر بقوة أن الله وحده هو مالك أمره ومقرر مصيره، وإليه يرجع الأمر كله، هو الذي يملك تبارك اسمه أن يضره وأن ينفعه، أما غيره فأسباب عرضية ليس لها من الأمر شيء. وهكذا فإن المسلم الذي يتشبع بقيم الإسلام يتحرر من الشعور بالخوف على الحياة، أو الخوف على الرزق، أو الخوف على المكانة والمركز، فالحياة بيد الله، ليس لمخلوق قدرة على أن ينقص هذه الحياة ساعة أو بعض ساعة: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١)).[1]

وهنا، نؤكد على أن هذه الثمار الطيبة للقيمة الإيمانية، رد قاطع على من يخوضون في الأمور بغير علم ولا كتاب منير، فيدعون أن أسلوب الدين الإسلامي في زرع الخوف من الله ومن الحساب في الآخرة يتعارض مع بناء الشخصية الحرة النامية المستقلة. فهؤلاء الأشخاص ينكرون ضرورة توفر عنصر الخوف في التربية، لارتباط ذلك بطبيعة الإنسان. (وإذا كان لا بد من الخوف، فليكن ممن بيده ملكوت كل شيء، ولنسد أبواب الخوف بعد ذلك).

وإذا كانت القيم التربوية الإسلامية وعلى رأسها القيمة الإيمانية، تترك أثرها في النفس والجسم، طمأنينة وسكينة، فإنها في ترابط عضوي مع تلك الآثار، تخلف أثرها الواضح في

١ سورة التوبة، الآية رقم (٥١).

عقل الإنسان المسلم بفضل ذلك النسيج المحكم من الحقائق والتشريعات وأنماط السلوك التي يتصل بها كيان المسلم، كما أن التحول النوعي الذي طرأ على عقل المسلم لدى اتصاله بالقرآن: فهو يعد من [نسيج القرآن الكريم نفسه، ومعطياته المعجزة، من بدئها حتى منتهاها، في مجال العقيدة والتشريع والسلوك والحقائق العلمية، فهي تمثل نسقًا من المعطيات المعرفية كانت كفيلة، بمجرد التعامل المخلص الذكي المتبصر معها، و تهز عقل الإنسان و تفجر ينابيعه وطاقاته، وتخلق في تركيبه خاصية التشوق المعرفي لكل ما يحيط به من مظاهر ووقائع وأشياء.[١]

وأمام المتغيرات السريعة، والتحولات التكنولوجية المتوالية، عرفت معظم البلدان عدة تطورات في مجال نظريات التربية، كان منها ارتباط العملية التربوية بالإعلام ومختلف وسائل التأثير الجديدة، وأصبحت المؤسسات تعطى المناهج والتجارب. ويعد الدور الأول في سلم الأولويات يعتمد على تطبيقات علمي التربية و النفس، لكن الكثير من رجال التربية لا يزالون ينظرون للتجديد التربوي نظرة الخوف و روح المغامرة الخاسرة، والحال أن اكتساب الأجيال طرائق تفكير جديدة في العمل والسلوك هي من المقومات الأساسية الأولى التي جاء بها الإسلام.

وقد تفطن الغربيون مؤخرا إلى الأخذ في التربية بنزعة الشمول التي تتعلق بتكوين شخصية الفرد في شتى الجوانب الإنسانية، وهو منزه جاء به الإسلام كما هو معلوم مند أربعة عشر قرنًا.

كما تحدثوا عن التربية المستمرة، و تعنى عندهم عدم اقتصار وسائل التربية على مرحلة الطفولة، ولا على مرحلة الشباب، ولكنها عملية مستمرة مع الإنسان، ربما مدى الحياة. ويدعى أبناء القرن العشرين أنهم محدثوها مع أن الإسلام قد جاء ونفد مفهوم هذه التربية مند

١ عبد المجيد بن مسعود: "القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر،الفصل الرابع:أثر القيم التربوية فى بناء الشخصية والمجتمع،المكتبة الإسلامية،الرباط،المغرب.ص١٣٢.

أربعة عشر قرنًا أيضًا، إذ أمر بالدعوة إلى طلب العلم والاستزادة منه والاستمرار في البحث والإصرار على الكشف والاختراع والاطلاع، وأنشأ عن طريق هذا المفهوم أمة حملت نور الحقيقة إلى البشرية كافة.[١]

ولكى تحقق التربية أهدافها ينبغى أن تعمل على تكوين الفرد النموذجي العارف المسؤول متخذة من القيم الدينية سبيلها إلى تحقيق الصحة الجسمية والعقلية والروحية للفرد، وتحقيق السلام والاطمئنان للمجتمع، وهذا هو ما يطلق عليه الأهداف العامة للتربية، والتي يمكن بلورتها في جوانب متعددة منها: الاهتمام بالنشء جسميا وعقليًّا وروحيًّا، والربط بين التربية والعقيدة الإسلامية، والمزج بين الإعداد الديني والدنيوي، إلى جانب مسايرة الجانب النظري في المعرفة للجانب العلمي في السلوك.

ويعد ابن القيم مربيًا فاضلًا، ونموذجًا قاطعًا عن حسن التربية، فهو مارس العمل التربوى ممارسة عملية، (درس بالصدرية وأم بالجوزية مدة طويلة).[٢] وكان ملازمًا للاشتغال ليلًا ونهارًا، كثير الصلاة والتلاوة، لا يعرف في زمانه من أهل العلم أكثر عبادة منه.

وتبرز جهود ابن القيم فى الجوانب التربوية من خلال حديثه عن تربية الطفل، وحاجته إلى التربية الخلقية، وأن الأخلاق مهما كان نوعها يكتسبها بالتعويد في سن مبكرة فيقول: (مما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه فإنه ينشأ على ما عوده المربى فى صغره من حرد وغضب، ولجادٍ، وعجلة، وخفة مع هواه، وطيش، وحدة، وجشع، فيصعب عليه تلافى ذلك....).[٣]

١ حسن بن علي الحجاجي: "الفكر التربوي عند بن القيم"، الطبعة الأولى، دار حافظ للنشر و التوزيع، ١٩٨٨، ص١٧٢-١٧٣.

٢ ذيل طبقات الحنابلة، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م، ص٤٤٩.

٣ البداية والنهاية، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٤٠٨، هـ – ١٩٨٨ م. ٢٥٣/٢٣٤.

مما سبق يلفت كلام ابن القيم إلى الاهتمامات التربوية التي اهتم بها، والتي تؤكد على ضرورة الالتزام بها في العملية التربوية ؛ وهذا ما ينادى به البحث الحالي.

مشكلة البحث:

تتحدد إشكالية هذا البحث فى وجود نقص فى البحوث التى تناولت الربط الكامل بين الإنسان والتربية باعتباره محور العملية التربوية، وباعتبار أن التربية كانت فى الإسلام واضحة المعالم محددة الغايات والأهداف معروفة الوسائل والأساليب، وبما أن محور هذه التربية هو الإنسان بروحه وعقله وقلبه وبدنه، وأن المربى الحق هو الله عز وجل، وبما أن التربية أعطت للإنسان الوسائل التى ساعدته على كسب العلم والمعرفة ؛ لذا يجب الربط الكامل بين الإنسان والتربية بحيث لا ينفصل بعضهما عن بعض.

وتحدد إشكالية هذا البحث فى الإجابة عن السؤال الرئيس التالى:

ما التطبيقات التربوية المتعلقة بالإنسان والتربية من وجهة نظر ابن القيم؟

ويتفرع عن هذا السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية التالية:

١-ما رأى ابن القيم فى الإنسان الذى هو محور العملية التربوية؟

٢-ما مفهوم التربية عند ابن القيم؟

٣-ما رأى ابن القيم فى التربية والربط بينها وبين الإنسان؟

٤-ما التطبيقات التربوية المستنبطة من آراء ابن القيم والمتعلقة بالإنسان والتربية؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى ما يلي:

١-تحديد مفهوم التربية عند ابن القيم.

٢-تحديد آراء ابن القيم فى الإنسان بصفته محور العملية التربوية.

٣-تحديد آراء ابن القيم فى الربط بين الإنسان والتربية.

٤-تسهم فى تأصيل التربية عن طريق الوقوف على التراث التربوى.

الدراسات السابقة:

تطرق البحث إلى دراستين مستعرضة الهدف والمنهج والنتائج:

١-عبد الناصر العيسوى: "آراء ابن القيم فى التربية "، مجلة منار الإسلام العدد (١١) من شهر ذى القعدة، سنة ١٤٠٢هـ، هدفت هذه الدراسة تحديد ابن القيم للارشادات التربوية لدى الآباء والمربين، والآثار والنتائج المترتبة على سوء التربية، واستخدم البحث المنهج الوصفى الذى يصف سلوكيات الأطفال، وتوصلت الدراسة إلى تحديد مجموعة من الارشادات التى ينبغى أن يربى عليها الآباء أبناءهم مثل: غرس محبة الله ومحبة رسوله فى نفوس الأبناء، والاهتمام بالتربية العقلية والخلقية.

٢-حسن بن على الحجاجى: "الفكر التربوى عند بن القيم "، الطبعة الأولى، دار حافظ للنشر والتوزيع، ١٩٨٨، هدفت الدراسة إلى تحديد الفكر التربوى الأصيل عند ابن القيم، ونظرته إلى الإنسان باعتباره محور العملية التربوية، واستخدم البحث المنهج الاستقرائى التاريخى فى وصف الآراء، وأسفرت نتائج البحث عن وضوح النظرية التربوية لابن القيم، وبناء نظرية المعرفة على أساس من السعادة، وأن نجاح العملية التربوية مبنى على أساس سلامة المنهج وتكامله، والإيمان بأن محور العملية التعليمية هو الإنسان بروحه وعقله وبدنه.

وقد اعتنت هذه الأبحاث جميعها بالفكر التربوي، وقد استفاد منها البحث الحالي في استنتاج التطبيقات التربوية التي تربط بين الإنسان والتربية، وتساعد على التكامل بينهما، والتي تعد الإنسان محور العملية التربوية.

أهمية البحث:

تنقسم أهمية هذا البحث إلى قسمين:

الأهمية النظرية:

تتضح الأهمية النظرية للبحث فى رؤية ابن القيم في شخصية الإنسان ونشأته نشأة

دينية؛ مما يكون لها أثر إيجابي في العملية التعليمية، وكذلك دعوة ابن القيم للآباء والمربين أن يهتموا بتربية أبنائهم تربية عقلية وخلقية مع مراعاة الحالة النفسية للطفل، وكذلك الاهتمام بتعليم الأبناء؛ بحيث يكون مؤهلًا للعيش فى الحياة.

الأهمية التطبيقية:

تتضح الأهمية التطبيقية للبحث فيما يلي:

١. تحث الباحثين على الاهتمام بآراء ابن القيم فى الإنسان والتربية.

٢. حث الآباء على الاهتمام بالأطفال فى كل مرحلة تعليمية.

٣. الدعوة إلى اهتمام المسئولين بالعملية التعليمية، والتركيز على المعلم الذى يعد هو محور العملية التعليمية.

منهج البحث:

جمع هذا البحث بين المنهج الاستنباطي والمنهج التاريخي الوصفي، فقد تم جمع آراء ابن القيم فى الإنسان باعتباره محور العملية التربوية، وكذلك تعريف ابن القيم لمفهوم التربية في مختلف العصور، ورأيه في تربية الأطفال والشباب علميًا.

حدود البحث:

تتحدد حدود هذا البحث فيما يلي:

١. حدود بشرية: وتتمثل الحدود البشرية فى شخصية الإنسان وبدوره كمعلم وهو محور العملية التعليمية.

٢. حدود موضوعية: وتتمثل فى تحديد رأى ابن القيم فى الإنسان باعتباره محور العملية التعليمية، وكذلك تعريف ابن القيم للتربية ورأيه فى تربية الأطفال والشباب والاهتمام بالتعليم بكافة مراحله.

مصطلحات البحث:

تتحدد مصطلحات هذا البحث فى مفهوم واحد فقط ألا وهو التربية، وتعرف التربية

لغة: (ربّى) الولد.. وليه وتعهده بما يغذيه وينميه ويؤدبه، و(ربّى) القوم.. ترأسهم وساسهم، و(ربّى) الشيء..ملكه، و(ربّى) الشيء..جمعه، و(ربّى) النعمة ربًا، ورباباُ ورابةً: حفظهاونماها، و(ربَّى) الشيء: أصلحه ومتنه، ويقال: (ربُّ) الأمر.

وعرف الأجانب المحدثين التربية بأنها: "عملية نقل المعرفة وتعليمها من جيل إلى آخر، على أساس أن هذه العملية تتم في إطار الحضارات والتراث لضمان استمرار التراث والتلقين كتابة أو شفاهة بما في ذلك الإدراك والتصرف، وعرفوها أيضًا بأنها: "هي عملية مساهمة ومساعدة للطبيعة في تنمية طبيعة الجسد عضليا وفكريا، وأخلاقيا بهدف سعادته ومسؤوليته الاجتماعية"، أما التربية العلمية فقد عرفوها على أنها: "إعداد رجال ترتبط المنافع المادية بكل حركة من حركاتهم، فليس لهم باعث آخر لأي عمل مهما كان غير باعث المادة والمنفعة، حتى لو كان العمل ذا صلة بأب أو أم أو أخ أو قريب أو غيرهم، هذا هو الباعث والهدف معا في تربية نشئهم[1].

كما عرفت التربية عند المسلمين بأنها: "هي رعاية نمو الإنسان في جوانبه الجسمية والعقلية والروحية والوجدانية والدينية والاجتماعية، وتوجيهها نحو الصلاح والوصول بها إلى الكمال" وتعرف التربية فى الإسلام بأنها: "هى التربية التى تراعي الفروق بين الأفراد سواء من حيث تباين مستوى القدرة على الفهم أو الاختلاف في العمر، أو ما يتصل بتعمير الكون وتسخير قوي الطبيعة لخير الإنسانية والنهوض العام بالبشرية، ولذلك فإنها تحدد للإنسان مكانته وتوضح له مسؤوليته، وتشكل الإنسان الصالح صاحب الشخصية الإنسانية المستقلة".[2]

وتعرف التربية إجرائيًا بأنها: تربية الأبناء على غرس محبة الله، ومحبة رسوله، والاهتمام بالتربية العقلية والخلقية عند إعداد الطفل، والمحافظة على استعداده النفسي مما يجعله ينشأ

١ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، المؤلف: مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية –بيروت، ص٢٢٢.

٢ العربى الغساسى: "التربية فى الإسلام،أهدافها،تعدد وسائلها"، الرباط،المغرب، ص٢٢.

طفلًا متدينًا مطيعًا لله ورسوله.

أدوات البحث:

تم استخدام أداة واحدة فقط وهى عبارة عن استمارة تحليل معدة من قبل الباحثة أعددتها بنفسها لتحليل بعض كتب ابن القيم، والتي تناولت رأي ابن القيم في الإنسان والتربية، لتحليلها واستنباط كل ما يتعلق برأي ابن القيم في الإنسان والتربية ، وقد احتوت الاستمارة على عدة بنود يتم فى ضوئها تحليل كتب ابن القيم، واستنبطت هذه البنود من الدراسات السابقة والأدبيات وخبرات الباحثة فى مجال التقويم.

المبحث الأول: رأي ابن القيم في الإنسان:

يتميز الإنسان في نظر ابن القيم بخواص يميزه عن غيره من المخلوقات؛ فالأصل الأول للإنسان من طين، ونسله من ماء مهين، فأول مراتب خلقه أنه سلالة من طين، ثم بعد ذلك سلالة من ماء مهين، وهي النطفة التي استلت من جميع البدن، وهذا مشتق من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ .[1]

كما يوضح ابن القيم أن الإنسان خلق من قبضة قبضها الله من جميع الأرض، فيها الطيب والخبيث، والسهل والحزن، والكريم واللئيم.[2] وذكر أنه يكفى فى فضل المخلوق من الأرض أن الله تعالى خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء،[3] وقد كرم الله الإنسان بالعقل والعلم والفهم والبيان والنطق وحسن الصورة واستقامة الفكر والتحلى بالأخلاق؛ وهذا يدل على أن الله خصّ الإنسان بالعلم والعقل والفهم، فإذا عدم ذلك لا يبق فيه إلا القدر المشترك بينه وبين سائر الحيوانات؛ فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة،

١ سورة المؤمنون الآية ١٢،١٣.

٢ تحفة المودود بأحكام المولود، المؤلف: مُحَمَّد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، الناشر: مكتبة دار البيان – دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩١ – ١٩٧١، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ص٢٤٥.

٣ كتاب "الذيل على طبقات الحنابلة" ابن رجب بتصحيح مُحَمَّد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية.ص١١٢

واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة من البر والطاعة والانقياد؛ كما تأمل ابن القيم الخلق الذى خصَّ به الإنسان دون جميع الحيوانات، وهو خلق الحياء، الذى هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرًا وأخصها نفعًا، بل هو خاصية الإنسانية فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة.[١]

ومن أعظم ما تكلم عنه ابن القيم هو قدرة الإنسان على التعلم، بما أعطاه الله من الوسائل المعينة على ذلك، فيقول –رحمه الله: "من أعطاه الذهن الذى يعي به، واللسان الذي يترجم به، ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعلم دون سائر الحيوانات، ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه، ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد، فكم لله من آية نحن غافلون عنها!!".[٢]

ويكمل ابن القيم كلامه عن خلق الإنسان فيقول: إنه لم يخلق عبثًا ولم يترك سدى؛ وذلك فى قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾،[٣] فيعلق ابن القيم على هذه الآيات قائلًا: فمن لم يتركه وهو نطفة سدى، بل قلب النطفة وصرفها حتى صارت أكمل مما هي، حتى خلقها فسوى خلقها، فدبرها بتصريفه وحكمته فى أطوار كمالاتها حتى انتهى كمالها بشرًا سويًا، فكيف يتركه سدى لا يسوقه إلى غاية كماله الذى خلق له؟".[٤]

ومما سبق قوله عن نشأة الإنسان بهذا الشكل المترابط الأجزاء يفيد فى وضع المنهج السليم للتربية؛ حيث يراعي هذا المنهج احتياجات الروح، ومتطلبات البدن، وضرورات العقل، فيعطي كل عنصر ما يحتاجه من التربية، لينمو هذا الإنسان نموًا متزنًا، بعيدًا عن الاضطراب والتشتت وبهذا يتحقق التوازن في حياته.

١ ابن القيم: "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة" دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١/٢٧٧.

٢ حسن بن على الحجاجى: "الفكر التربوى عند ابن القيم"، دار حافظ للنشر والتوزيع، ٢٧٩.

٣ سورة القيامة:الآيات رقم:٣٦،٣٧،٣٨.

٤ ابن القيم: "بدائع الفوائد":بتصحيح وتعليق: إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢ /٥١.

المبحث الثاني: رأي ابن القيم في كون الإنسان محور العملية التربوية:

وفي معرض حديث ابن القيم عن فضل العلم وأهله، يوضح لنا أن العباد عليهم أن يعلموا بأن الله بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير؛ إذن الغاية هى عبادة الله، وتستلزم العبادة معرفة الله بأسمائه وصفاته وأمره ونهيه، وهذه العبادة لا تصل إلى الكمال إلا بكمال الحب له سبحانه مع كمال الخضوع والذل له، وهذا الكمال يقتضى امتثال الأمر والنهى والرضا والتسليم بالقضاء والقدر والإيمان بالثواب والعقاب، ومن كمال المحبة لله والمحبة لرسول الله أن يكون حبهما مقدمًا على حب غيرهما، بل يكون حب المرء كله لهما، والدليل على ذلك قول الرسول -ﷺ-: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما".[١]

وقد تطرق ابن القيم فى حديثه عن النفس البشرية وما يعود منها على الإنسان فيقول: (إن النفوس نوعان عدم ووجود، فالأول كعدم العلم والإيمان والصبر وإرادة الخيرات وعدم العمل بها، والثانى هو الشر الوجودى كالعقائد الباطلة، والإرادات الفاسدة فهو من لوازم ذلك العدم ؛ فإنه متى عدم ذلك العلم النافع والعمل الصالح من النفس لزم أن يخلفه الشر والجهل وموجهما فلابد من أحد الضدين؛ فإذا لم تشتغل بالمفيد النافع الصالح اشتغلت بالضد الضار الفاسد).[٢]

وإن دل على هذا شيء يدل على مفهوم التربية والتعليم وأهميتهما وفضل العلم عند ابن القيم.

المبحث الثالث: مفهوم التربية عند ابن القيم:

تعددت تعريفات كثيرة للتربية فى مختلف الديانات، وكذلك تعددت تعريفاتها عند المربي ابن القيم، وفيما يلي سيتم عرض لبعض هذه التعريفات:

١. مفهوم التربية عند المسلمين:

١ ابن القيم: "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي"، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٤١.

٢ ابن القيم: "الويل الصيب من الكلم الطيب"، المطبعة السلفية، ط٥، ١٩٨٠، ص٣.

أما الإسلام فقد اختار الشمولية لمنهجه التربوي؛ حيث اهتم بجميع جوانب الإنسان وعالجها معالجة شاملة لا تغفل منه شيئًا: جسمه وعقله وروحه، حياته المادية والروحية والمعنوية، وكل نشاطاته على الأرض، ونظر إلى الإنسان بوصفه كلًّا لا يتجزأ، يملك نظامًا حياتيًّا كاملًا لا ينفصل عن عقيدة المبدأ التي تمثل الأساس الفكري له، وبهذا الشمول كانت التربية في الإسلام تربية متواصلة، توجه الفرد نحو الخير، وترمي إلى تشييد مجتمع مثالي وأمة ريادية، ويعد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الأساس الأول للتربية في المجتمع الإسلامي لما يشتملان عليه من آيات وأحكام تتناول تربية المسلم تربية كاملة تعده للسعادة في الدارين الدنيا والآخرة، وإلى جانبهما توجد آراء العلماء وأقوالهم الذين أخذت التربية جزءًا هامًّا في تعاليمهم، أي أن الإسلام هو الأساس في التربية عند معتنقيه، ويمكن تعريف التربية عند المسلمين بأنها: "هي تعريف النشء بحقائق دينهم وما اشتمل عليه من عقائد وعبادات وسلوك أخلاقي ومعاملات". كما عرفت أيضًا بأنها: "وهي تكوين الفرد المسلم المؤمن السوي المؤهل لخلافة الله في الأرض وفق منهجه تعالى ونظامه وقيمه ومعاييره". وقد تناول تعريف آخر كافة الجوانب الشخصية؛ حيث عرفت بأنها: "وهي رعاية نمو الإنسان في جوانبه الجسمية والعقلية والروحية والوجدانية والدينية والاجتماعية، وتوجيهها نحو الصلاح والوصول بها إلى الكمال".[1]

ومن التعريف السابق نجد أنه تناول كل الجوانب والمكونات لشخصية الإنسان، فتنشأ في توازنٍ تامٍ في كل أبعادها، وبذلك يحقق الإسلام الغايات والأهداف التي تتوخى تنشئة أجيال متماسكة بدينها، معتزة بعقيدتها، مدركة لواجباتها، متفانية في العمل الصالح لخير الفرد والجماعة.

وبناءً على ذلك تنطلق التربية في الإسلام من أنها ترافق المسلم من المهد إلى اللحد، فهي تبدأ في البيت، ثم في البيئة ثم في المدرسة خاصة والحياة العامة؛ فهي لا تقف عند

١ ابن القيم: "عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين" تصحيح الناشر زكريا علي يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت.

مرحلة معينة أو جانب معين، بل هي رسالة ممتدة مدى الحياة يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ويقول الرسول (ﷺ): "لا يزال الرجل عالمِا ما طلب العلم، فإذا ظن انه علم فقد جهل"، فمن المهم أن يتولى هاته التربية مربون ذوو عقيدة راسخة وحملة رسالة إسلامية هادفة، يتحلون بدرجة عالية من العلم والأخلاق الحميدة؛ كما أنها تراعي الفروق بين الأفراد سواء من حيث تباين مستوى القدرة على الفهم أو الاختلاف في العمر، أو ما يتصل بتعمير الكون وتسخير قوى الطبيعة لخير الإنسانية والنهوض العام بالبشرية، ولذلك فإنها تحدد للإنسان مكانته وتوضح له مسؤوليته، وتشكل الإنسان الصالح صاحب الشخصية الإنسانية المستقلة، وتنظر إلى المسلم الفرد كشجرة؛ جذورها الإيمان، وجذعها الفضيلة، وأغصانها وأوراقها العلم والمعرفة، وثمرتها العمل الصالح، فما على المربي المسلم إلا أن يرعى نمو الشجرة وازدهارها ويغذيها بالعبادة وعمل الخير، فمتى تحقق ذلك، تكون التربية قد أسدت للبشرية أجل الخدمات في نشر الخير والحق والوفاء للجميع.[١]

٢.مفهوم التربية عند الأجانب المحدثين:

وقد وضع الأجانب المحدثين للنشء البرامج والمناهج المختلفة في المدارس، وصنعوا لهم البرامج في المسرح والإذاعة والتلفاز، وألفوا الكتب المختلفة، كل ذلك ليحيطوه ببيئة مصطنعة، تجعله ينشا نشأة سليمة.

وقد عرفوا التربية بأنها: "تعني عملية نقل المعرفة وتعليمها من جيل إلى آخر، على أساس أن هذه العملية تتم في إطار الحضارات والتراث لضمان استمرار التراث والتلقين كتابة أو شفاهة بما في ذلك الإدراك والتصرف". وعرفوها أيضًا بأنها: "هي عملية مساهمة ومساعدة للطبيعة في تنمية طبيعة الجسد عضليًّا وفكريًّا، وأخلاقيًّا بهدف سعادته ومسؤوليته الاجتماعية" وغير ذلك من التعاريف، إلا أن التربية العلمية عندهم: إعداد رجال ترتبط المنافع المادية بكل حركة من حركاتهم، فليس لهم باعث آخر لأي عمل مهما كان غير باعث

١ مفاهيم تربية في الإسلام محمود السيد سلطان، الطبعة: الثانية، دار المعارف، ص٨٧.

المادة والمنفعة، حتى لو كان العمل ذا صلة بأب أو أم أو أخ أو قريب أو غيرهم، هذا هو الباعث والهدف معا في تربية نشئهم.[1]

٣.مفهوم التربية عند ابن القيم:

تعرف التربية لغة: (ربّ) الولد.. وليه وتعهده بما يغذيه وينميه ويؤدبه، و (ربّ) القوم.. ترأسهم وساسهم، و(ربّ) الشيء.. ملكه، و(ربّ) الشيء ..جمعه، و(ربّ) النعمة ربًّا، وربابًا وربابةً: حفظها ونماها، و(ربّ) الشيء: أصلحه ومتنه، ويقال: (ربُّ) الأمر.

و(الربُّ): المالك، السيد، المربي، القيم، المنعم، المدبر، المصلح.

وربَّ ولده والصبي يربه ربًا تربيبًا وتربةً عن اللحياني بمعنى رباه.. وفي حديث ابن ذي يزن:

أسد تربب في الغيضات أشبالًا

أي: تربى، وهو أبلغ منه ومن ترب، بالتكرير الذي فيه وتربيه وارتبه ورباه تربية – على تحويل التضعيف، و"ترباه" على تحويل التضعيف أيضًا: أحسن القيام عليه، ووليه حتى يفارق الطفولية، كان ابنه أو لم يكن. والصبي مربوب، وربيب، وكذلك الفرس والمربوب المربى،[2] والربانى العالم المعلم الذي يغذو الناس بصغار العلم قبل كبارها، والمرد بصغار العلم ما وضح من مسائله وبكباره ما دق منها.[3]

ومن التعريفات السابقة يتضح مفهوم التربية عند ابن القيم، وهي تعني الإشراف على أمر الطفل، وحسن القيام عليه وتعهده ورعايته بالغذاء وتوجيهه حتى يفارق الطفولة، كما تعنى تعهد الناس وتوجيههم، والتدرج معهم فى التعليم والإشراف على أمورهم، وكذلك الاهتمام بالعلم وملاحظة شأنه وتنميته حتى يصل الإنسان فيه إلى شيء من الكمال الذى

١ ابن القيم: "الفوائد" دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،١٩٧٣، ص٨٨.

٢ المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية، مادة رب.

٣ ابن منظور: "لسان العرب"، مادة ربب، بشيء من التصرف.

يستطيع به تعليم الناس والتدرج بهم من صغاره لكباره.[١]

كما يعرف ابن القيم التربية اصطلاحيًّا كما فى كتب التفسير، ومنها: الربُّ فى الأصل مصدر بمعنى التربية؛ وهى تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا، و"الرب" له أربعة معانٍ: الإله، والسيد، والمالك للشيء، والمصلح للأمر".[٢]

وجاء فى تفسير (الرباني) تعريف التربية بأنها (ربانيين) جمع رباني وهو العالم، وقيل: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره].[٣]

مما سبق من تعريفات ابن القيم للتربية يتضح أن: الرباني، هو الذي يربي العلم، ويربي الناس به، أي يعلمهم ويصلحهم، كما توضح هذه التعريفات مراتب العلم عند ابن القيم التي تبدأ بالسماع ثم العقل ثم الفهم ثم الحفظ وآخر مرتبة التبليغ والنشر بين الناس.

١ مُحَمَّد بن أحمد الكلبي: "كتاب التسهيل لعلوم التنزيل"، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت/١٩٧٣،١/٢٠.

٢ ابن القيم: "الموارد" ترجمة بكر عبد الله أبو زيد، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣ ،١ /١٢٦.

٣ ابن القيم: "إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان" تحقيق مُحَمَّد حامد الفقي، ١/٤٦.

نتائج البحث:

تعد نتائج هذا البحث مجرد تطبيقات تربوية أو تصورات تم استنباطها من آراء ابن القيم فى الإنسان والتربية، وهي كالتالي:

١. إن المعلم يجب أن يكون بمثابة الموجه الحازم للطفل والمرشد الهادي الذي يوجهه إلى ما فيه الإنتاج والخلق والسلوك الاجتماعي الصحيح الأخ الأكبر الذي يهيئ لإخوانه الصغار الجو المناسب الذي يميلون إليه، وعليه أن يعيش معهم ويظهر أمامهم على طبيعته من غير تكلف أو كبرياء، ومن واجبه كذلك أن يكون معينًا لهم يساعدهم على مقابلة الشدائد والتغلب على الصعاب، بهذا فقط يستطيع أن يكسب ثقة تلاميذه وحبهم له، ويستطيع أن يؤثر في نفوسهم ويوجههم إلى ما فيه خيرهم وخير الإنسانية.

٢. المعلم هو الربان الذي يسخر براعته ومهارته في إيجاد التناسق والتفاعل الإيجابي بين العوامل التي تؤثر على سير السفينة نحو وجهتها بسهولة ويسر، ولا بد أن يتصف بالإخلاص والتقوى وقوة الشخصية.

٣. ضرورة أن يكون المعلم متحمسًا لمهنته ومادته، يعتبر نموذجًا سلوكيًّا جيدًا لتلاميذه ويدعوهم إلى حبه وتقليده لا شعوريًا في هذه الصفات وعلى النقيض من ذلك، أما المعلم الخمول واللامبالاة يبعث في تلاميذه شعورًا بالملل والرتابة، والجمود فيؤدي إلى فتور المتعلمين وسلبيتهم وكراهيتهم للمادة الدراسية.

٤. تربية النشء تربية سليمة قائمة على حب الله وعبادته والإخلاص له، والتمسك بالقيم والأخلاق السامية.

٥. تحديد الفكر التربوي الأصيل عند ابن القيم بنظرته إلى الإنسان بأنه محور العملية التربوية.

٦. التربية عند ابن القيم تحرص على إيجاد نموذج خاص من الإنسان الصالح الحريص على العلم النافع.

توصيات البحث:

توصل البحث إلى التوصيات التالية:

١-إن أفكار ابن القيم صالحة للتطبيق لدينا فى مجال العملية التعليمية، مع بيان الوسائل الجيدة للتطبيق العلمي.

٢- إن أهم ما يبرز الفكر التربوي لابن القيم ويبين قيمته التربوية فى مجالي النظرية والتطبيق، هي الدراسة المقارنة بين هذا الفكر وبين الفكر التربوي الحديث، كما أن الفكر لديه يتميز بالواقعية وإمكانية التطبيق.

٣-الاستفادة من الفكر التربوي فى تربية الأطفال في جميع مراحل الحياة فكريًّا وبدنيًّا.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. ابن القيم: "إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان"، تحقيق: مُحَمَّد حامد الفقى.

٣. ابن القيم: "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي"، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤. ابن القيم: "الفوائد" دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٧٣.

٥. ابن القيم: "المفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة" دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٦. ابن القيم: "الموارد" ترجمة بكر عبد الله أبو زيد، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣.

٧. ابن القيم: "الويل الصيب من الكلم الطيب"، المطبعة السلفية، ط٥، ١٩٨٠.

٨. ابن القيم: "بدائع الفوائد"، بتصحيح وتعليق: إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتاب العربى، بيروت، لبنان.

٩. ابن القيم: "عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين" تصحيح الناشر: زكريا على يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠. ابن رجب، "الذيل على طبقات الحنابلة"، بتصحيح مُحَمَّد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية.

١١. ابن منظور: "لسان العرب"، مادة ربب، بشيء من التصرف.

١٢. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ): "البداية والنهاية"، المحقق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٤٠٨، هـ - ١٩٨٨ م.

١٣.حسن بن علي الحجاجي: "الفكر التربوي عند بن القيم" ، الطبعة الاولي، دار حافظ للنشر و التوزيع، ١٩٨٨.

١٤.زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، "ذيل طبقات الحنابلة"، المؤلف: المحقق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م.

١٥.عبد المجيد بن مسعود: "القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، الفصل الرابع: أثر القيم التربوية فى بناء الشخصية والمجتمع، المكتبة الإسلامية، الرباط، المغرب.

١٦.العربي الغساسي: "التربية في الإسلام، أهدافها،تعدد وسائلها"، الرباط، المغرب.

١٧.مُحَمَّد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية : "تحفة المودود بأحكام المولود"، الناشر: مكتبة دار البيان – دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩١ – ١٩٧١، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط.

١٨.مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ): "مفتاح دار السعادة" منشور بولاية العلم والإرادة، الناشر: دار الكتب العلمية –بيروت.

١٩.مُحَمَّد بن أحمد الكلبي: "كتاب التسهيل لعلوم التنزيل"، ط٢، دار الكتاب العربى، بيروت/ ١٩٧٣.

٢٠.محمود السيد سلطان "مفاهيم تربية في الإسلام" ، الطبعة: الثانية، دار المعارف.

٢١.المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مادة "رب".